مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

العدد ٢٠١٢/٣٤

الأحد ١٩ آب

تذكار الشهيد إندراوس ورفقته

اللحن الثاني

إنجيل السَحَر الحادي عشر

الرسالة

(١ كور ٩: ٢-١٢)

يا إخوة إنَّ خاتَم رسالتي هو أنتم في الربّ* وهذا هو احتجاجي عند الذين يفحصونني* ألعلَّنا لا سلطانَ لنا أن نأكلَ ونشرب* ألعلَّنا لا سلطانَ لنا أن نجولَ بامرأةٍ أختٍ كسائرِ الرسلِ وإخوةِ الربِّ وصفا* أم أنا وبرنابا وحدَنا لا سلطانَ لنا أن لا نشتغِل* مَن يتجنَّدُ قطُّ والنفقةُ على نفسه. مَن يغرسُ كرماً ولا يأكل من ثمره. أو مَن يرعى قطيعاً ولا يأكُل من لبن القطيع* ألعلّي أتكلَّم بهذا بحسبِ البشريَّة أم ليس الناموسُ أيضاً يقول هذا* فإنَّه قد كُتب في ناموس موسى لا تكُمَّ ثوراً دارِساً. ألعلَّ اللهَ تهمه الثيران* أم قال ذلك من أجلنا لا محالة. بل إنَّما كُتب من أجلنا. لأنَّه ينبغي للحارثِ أن يحرُثَ على الرجاءِ وللدارسِ على الرجاءِ أن يكون شريكاً في الرجاءِ* إن كُنَّا نحن قد زَرَعنا لكم الروحيَّات

صموئيل النبي والملك شاول

في العشرين من شهر آب تُقيم الكنيسة تذكار النبي صموئيل الذي كُرّس للرب من قبل الحبل به عندما نذرته أمه حنّة: «يا رب الجنود إن نظرتَ نَظراً إلى مَذَلَّةِ أَمَتِكَ وذكرتني ولم تنسَ أَمَتَكَ بل أعطيتَ أَمَتَكَ زَرْعَ بشر، فإنّي أُعطيه للرَّبِّ كلَّ أيَّام حياته، ولا يعلو رأسه موسى» (١ صمو ١: ١١). هكذا لما وُلد الصبي سمّته أمُّه صموئيل أي اسم الله، ولم تقص شعره علامةً على تكريسه، وعندما فطمته أتت به إلى مقدس الرب في شيلوه إلى عالي الكاهن ليدربه على خدمة الرب. ذات مساء، كان صموئيل نائماً في الهيكل حيث كان يقف الكاهن عادة للصلاة، فناداه الله باسمه. ظنّ صموئيل أن الكاهن عالي هو مَن يناديه فنهض وتوجّه إلى الكاهن الذي أخبره أنه كان نائماً وطلب منه أن يعود إلى النوم. ولمّا تكرّر الأمر ثلاث مرات، أدرك الكاهن أن الله هو الذي كلّم الصبي، فقال له: «اذهبِ اضطجع ويكونُ إذا دعاكَ تقول تكلّم يا ربُّ لأنَّ عبدَكَ سامِعٌ» (١ صمو ٣: ٩)، ولما فعل كذلك كلّمه الله.

في زمن صموئيل كان القضاة يحكمون مملكة إسرائيل منذ أكثر من مئتي عام. بدا الناس مكتفين بحكمهم، لكن عندما اتّضح أنّ ابنَي صموئيل النبي اللذين عيّنهما قاضيَين كانا فاسدين، صار الناس يطالبون بملك أرضي. وبالرغم من تحذير صموئيل للناس من المخاطر التي ستواجههم إن حكمهم ملك، إلاّ أنّهم أصرّوا على طلبهم إلى أن استجاب الله أخيراً وطلب من صموئيل أن يمسح شاول أول ملك على إسرائيل. «فقال الرب لصموئيلَ اسمع لصوتِ الشعبِ في كلِّ ما يقولون لك، لأنهم لم يرفضوك أنت بل إيَّايَ، رفضوا حتى لا أملِكَ عليهم» (١ صمو ٨: ٧).

كان شاول شاباً ينتمي إلى سبط بنيامين. كان رجلاً مؤثراً، يفوق بطوله أي رجل آخر، وُصف بأنه لا مثيل له بين بني إسرائيل. لم يكن مستعداً ليعتلي العرش، لكنّه لم يأخذ وقتاً طويلاً قبل أن يستقر في موقعه الجديد ويبدأ بخوض الحروب كسائر الملوك. منح الله شاول سلسلة انتصارات مذهلة، لكن عوض أن

أفيكونُ عظيماً أن نحصُدَ مِنكم الجسديَّات* إن كان آخـــرونَ يشتركـــونَ في السُلطـانِ عليكم أفلَسنا نحن أَولى. لكنَّا لم نستعملْ هذا السلطانَ بل نحتمِلُ كلَّ شيءٍ لئلاَّ نُسبِّبَ تعويقاً ما لبشارةِ المسيح.

الإنجيل

(متى ١٨: ٢٣–٣٥)

قال الربُّ هذا المثَل. يُشبه ملكوت السموات إنساناً ملِكاً أراد أن يحاسِبَ عبيدَه* فلمَّا بدأ بالمحاسبةِ أُحضِر إليه واحدٌ عليه عشرَةُ آلافِ وزنةٍ* وإذ لم يكن له ما يوفي أَمَرَ سيّدُهُ أن يُباع هو وامرأتُه وأولاده وكلُّ ما له ويُوفي عنه* فخرَّ ذلكَ العبدُ ساجداً له قائلاً تمهَّل عليَّ فأوفيكَ كلَّ ما لك* فرَقَّ سيّدُ ذلك العبد وأطلَقَهُ وترك له الدَّين* وبعدما خرج ذلك العبدُ وجدَ عبداً من رُفقائه مديوناً له بمئةِ دينارٍ فأمسَكه وأخذ يَخنُقُه قائلاً أوفِني ما لي عليك فخرَّ ذلك العبدُ على قدميهِ وطلب إليه قائلاً تمهَّل عليَّ فأوفيكَ كلَّ ما لك* فأبى ومضى وطرحه في السجنِ حتى يوفي الدَّين. فلمَّا رأى رُفقاؤه ما كان

يتواضع ويشكر الله، ظن شاول أنّ كلّ ذلك كان من صنعه هو. وقد ساعد على تأجيج غروره المنتفخ كثرة تزلّف الجموع. حتى انه لم يكن ليسمح لغيره بالتباهي بانتصاراتهم لأنه وحده فقط يصنع الإنتصارات.

في إحدى المرات، كان شاول يواجه جيشاً كبيراً وكانت هزيمته شبه مؤكدة، لكنّ النبي صموئيل طلب من الملك عدم الخوف لأنّ الله سيمنحه النصر. أمّا هو، فكان عليه بالمقابل أن ينتظر عودة صموئيل ليقدّم ذبيحة لله. انتظر شاول سبعة أيام، حسب الوقت الذي حدّده صموئيل، لكنّ صموئيل لم يأتِ وابتدأ رجال شاول يتبعثرون. وكما يحدث مع معظمنا عندما نواجه خيارات صعبة، قرر الملك، مذعوراً، أن يقدّم الذبيحة بنفسه. كان ذلك خطأً فظيعاً. إذ لم يكن ذلك مخالفاً لتعليمات صموئيل الواضحة فقط، بل مخالفاً أيضاً لشرائع الله في ما يختصّ بالذبائح، إذ لا يُسمح سوى للكهنة بأن يقدّموا ذبائح لله. لكنّ شاول كان يشعر على الأرجح أنّه مساوٍ للكهنة، إن لم يكن أعظم منهم. لما انتهى من إصعاد المحرقة، وصل صموئيل وارتعب لِما فعله شاول. إثر ذلك قال له صموئيل أنه أطاح بفرصة تأسيس مملكته علي إسرائيل إلى الأبد، وأنّ الله سيسلّم مُلكه لشخص آخر. لكن بدلاً من إظهار التوبة، حاول شاول أن يبرّر نفسه. وهذا ما يفعله كثيرون منّا عندما نخطئ.

مع ذلك، قرّر الله لكونه إله الرحمة، أن يعطي شاول فرصة ثانية. منح الملك إنتصاراً محدوداً على الفلسطينيين، ثم إنتصارات سريعة متتالية على أعدائه الآخرين، لكن عندما حان الوقت لمحاربة العمالقة، اختبره الله من جديد. أخبره الله أنه سيمنحه الظفر لكن عليه ألا يأخذ أية مغانم من الحرب. هاجم شاول العمالقة ومنحه الله النصر الموعود، لكن من جديد لم يكن الملك مطيعاً. فعوض أن يدمّر كل شيء كما طُلب منه، قرّر أن يحتفظ لنفسه بالخراف الجيّدة والقطعان وسائر الأمور الجيّدة. عندما عاتبه صموئيل، برّر أفعاله مجدداً، قائلاً إنّه ترك العجول والحملان ليقدّمها ذبائح لله! لكن صموئيل أجابه: «هل مَسَرَّةُ الربِّ بالمُحرَقاتِ والذبائح كما باستماعِ صوتِ الربِّ، هوذا الاستماعُ أفضلُ من الذبيحةِ والإصغاءُ أفضلُ من شَحْمِ الكِباش. لأنَّ التمرُّدَ كخطيئة العِرافة والعِنادَ جريمة كعبادة الوثن، لأنَّك رفضت كلامَ الربِّ رَفَضَكَ من المُلْكِ» (١ صمو ١٥: ٢٢–٢٣).

إن مقارنة بسيطة بين النبي صموئيل الذي كان آخر القضاة، وشاول الذي اصبح أول الملوك، تظهر أن الأول عرف كيف يسمع صوت الرب ويبقى أميناً لنذوره، بينما انقاد الثاني وراء غروره وشهوة السلطة رافضاً العمل بكلام الرب ومستهتراً بالمسحة التي نالها من لدنه. فلنحذُ حذو صموئيل النبي، طالبين شفاعاته ومتعلمين منه كيف نقول دائماً: «تكلّم يا رب لأن عبدَك سامعٌ».

الإتكال على الله

الصلاة حوارٌ مفتوح بين الله والإنسان، فيه يتمكّن المخلوق من التواصل مع سيّده. عندما يتحاور المرء مع كائن آخر، إنّما يركّز على الحوار كي لا تضيع الأفكار ويخرج عن الموضوع ويصاب بالتشتّت

حَـزِنـوا جـدًّا وجـاءوا فأعلَموا سيّدَهم بكل ما كان* حينئذٍ دعاهُ سيّدُه وقال له أيُّها العبدُ الشريرُ كلَّ ما كان عليك تركتُه لك لأنَّك طلبتَ إليَّ* أفَما كان ينبغي لك أن ترحَم أنت أيضاً رفيقكَ كما رحمتُك أنا* وغضِبَ سيّده ودفعه إلى المعذِّبين حتى يوفيَ جميعَ ما له عليه* فهكذا أبي السماويُّ يصنعُ بكم إن لم تتركوا من قلوبكم كلُّ واحدٍ لأخيهِ زلاَّته.

تأمل

تجعلنا المحبة بلا لوم لأنها تمنع الطمع والجشع والحسد والأهواء الأخرى من السيطرة على النفس. فعموماً، لا يوجد هوىً ولا خطيئة لا تمحوها المحبة. إنه لسهل على غصن يابس أن ينجو من لهب الأتون على أن تخلص الخطيئة من نار المحبة. إذاً، إن زرعنا المحبة في قلوبنا سنكون قدّيسين. نعم، لأنّ جميع القديسين أرضوا الله بالمحبة. لأيّ سببٍ أصبح هابيل ضحية القتل وليس قاتلاً؟ لأنّه كانت لديه محبة كبيرة لأخيه ولم يقدر أن يُسيء إليه ولا حتى عندما قتله أخوه، ولأيّ سببٍ حسد قايين هابيل وقتله؟ لأنه ما كانت لديه محبة في نفسه. ولماذا اكتسب ابنا نوح، سام ويافث سمعةً

الذهني. في الكنيسة يحصل هذا الأمر أحياناً مع المؤمنين بسبب حفظ الصلوات غيباً، فيضيع المضمون وتتحول الصلاة أحياناً إلى مجرّد ترداد كلمات. اللافت في هذا السياق واحدة من الجمل التي يذكرها النبي داود في المزمور الخمسين: «لتكن يا رب رحمتك علينا كمثل اتّكالنا عليك». قد تمرّ مراراً جملة كهذه دون أن يتعمّق المؤمن فيها.

تدلّنا هذه العبارة على العلاقة التي بين الله والبشر. ولكن الله هو دائماً المبادر الأول بالرحمة والمحبة. داود الملك، مخاطباً الرب، يطلب منه الرحمة كما هي حال المؤمنين في الكنيسة الذين يردّدون «يا رب ارحم» مرّات لا تحصى. إلاّ أنّ داود كان مدركاً لرحمة الرب، وأيقن أنّ رحمةً كهذه تفترض تواضعاً بشريًّا. لا يطلب رحمةً أنانيّة من الرب بل رحمةً توازي اتّكاله عليه. وكأنّ داود يضع شرطاً على ذاته بأن يتّكل على الرب إلى ما لا نهاية كي ينال رحمةً من لدن الرب لا تنضب.

في العلاقات الإنسانيّة يُسلم العاشق ذاته لمعشوقه. يضع كلّ رجائه وثقته في هذا الشخص الذي يؤمّنه على حياته. يأتي هذا التسليم نتيجة الشعور بالأمان إلى جانب شخص يختاره الإنسان من بين كثيرين. إذاً، تتخطّى علاقاتنا مستوى الإتّكال على الآخر لتبلغ حدّ التسليم لهذا الآخر. هذا في ما يتعلّق بعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان المخلوق على صورة الله.

أمّا في العلاقة بين الخالق والمخلوق، بين الله والإنسان، فتتأرجح هذه الصلة من جهة البشر. تتراوح بين التسليم الكليّ لله وبين الإلحاد ورفض وجود الله حتى كفكرة. المسيحي المؤمن يضع رجاءه على الله عملاً بقول النبي داود في مكانٍ آخر «الإحتماء بالرب خيرٌ من التوكّل على الرؤساء» (مز ١١٨: ٩). المؤمن يُسلّم ذاته ليس فقط للحبيب، بل إلى الله أولاً. فالعشق الإلهي مبادرة من الله نحو البشريّة تجلّت في تجسّد الإله وقبوله الإهانات والصلب من أجل خليقته. أيّ تسليم من البشر لله هو تفاعلٌ مع هذا العاشق الذي عشق خليقته مضحياً بابنه وحيده الرب يسوع من أجل خلاص هذه الخليقة. أساس هذا العشق هو علاقة البنوّة المرتكزة على الإتّكال والرحمة.

في المقطع الإنجيلي الذي يتلى في هذا الأحد المبارك نجد فارقاً بين الرحمة الإلهيّة والرحمة البشريّة. العبد الذي يتّكل بشكل يوميٍّ على سيّده بسبب ظروف حياته كعبدٍ، إنّما عفا عنه سيّده في أصعب الظروف ونال رحمةً لا تحصى إذ ترك سيّده الدين. إلاّ أنّ ذاك العبد لم يتّعظ بل ظلم أخاً له وراح يخنقه مطالباً إياه بالدين. بعمله هذا لم يتّكل على الرب الذي أعانه في المحنة الأولى. وبسبب عدم الإتكال هذا غابت رحمة الرب عنه وأعاده إلى حالته السابقة تحت نير العذاب. عندما كان هذا الإنسان متّكلاً على الله نال الرحمة والبركات بنيله العفو. لكنّه عندما لم يتّكل على الرب خسر الرحمة التي كانت معطاةً له.

تعتمد الرحمة الإلهية إذاً على الإتكال على الرب وهذا الفكر عند المؤمن هو من المسلّمات التي لا تحتمل النقاش. مَن لا يعرف الله ولا يتّكل عليه، ليس لديه من سبيل لإدراك الله وتمييز رحمته إذا ما نالها. قال الرب يسوع في إنجيل لوقا بعد التطويبات «كونوا رحماء

جيدة؟ لأنّهما كانا يحبّان أباهما كثيراً ولم يكونا يحتملان رؤيته عريانا، والثالث، حام، لماذا لعنه نوح؟ لأنه لم يكن يحبّ أباه وسخر منه. وأيضاً ما سبب شُهرة إبرهيم الواسعة؟ السبب يعود إلى المحبة التي أظهرها لابن أخيه لوط وللسدوميين الذين تشفع لدى الاله من أجل خلاصهم.

كان القديسون ممتلئين محبةً وحناناً ومشاطرةً في الأحزان. فكّروا في بولس الذي عندما تعرّض للجلد والأخطار، بقي ثابتاً ولم يكن يخشى إلا الله فقط ولم يفكر في أي شيء ولم يهمه شيء. إلاّ انه حين رأى دموع أحبّائه، ضعف وهو الذي لا يلين وتأثّر قائلاً: «لِمَ تبكون وتكسرون قلبي؟» (أع ٢١: ١٣). وقد تسألون: «هل استطاعت الدموع أن تسحق النفس الماسيّة تلك؟» طبعاً، لأنه كما كان بولس يقول، فقد كان يتغلّب على كل شيء بقوة المحبة، لكن ليست المحبة نفسها التي كانت تخنقه وتنتصر عليه. هذا ما يُسرّ الله! الإنسان الذي لم يستطع أن يسحقه البحر الهائج، استطاعت أن تسحقه دموع المحبة القليلة. كم هي عظيمة قوتها!

القديس يوحنا الذهبي الفم

كما أنّ أباكم أيضاً رحيم» (لو ٦: ٣٦). الرب يسوع لم يعطِ دروساً أخلاقية وفلسفيّة كالفلاسفة وأساتذة الإجتماع. لقد كان الرب نفسه الأيقونة والمثال في تعاليمه. لقد عاش كلّ كلمةٍ قالها وهو ذاته اتّكل على الآب عندما كان على الأرض إذ قال «وأنا علمتُ أنّك في كلّ حين تسمع لي» (يو ١١: ٤٢).

عندما يسبق الإيمان أيّ عمل، يكون العمل مباركاً أضعافاً. المسألة ليست مسألة رياضيّات وحساباتٍ وإنّما المتّكل على الله ينال رحمةً وبركةً لا تحصى ولا يستقصى أثرها.

ثمار المناولة الإلهية

إن الزيتونة البريّة إذا طعّمت بطعم صالح تتحوّل وتصبح زيتونة مثمرة وهذا ما يحدث تماماً معنا نحن المسيحيين. عندما نكون وحدنا نبقى بدون ثمر روحي ولكن عندما نرتبط بالمسيح ونتناول جسده ودمه ننال سريعاً عظم الخيرات، غفران الخطايا وملكوت السموات، أي ثمار التبرير التي يعطيها المسيح. نتناول جسد المسيح الذي يشكل ضمانة لتحقيق الغلبات الروحية والفتوحات السامية.

من الواضح ان حياتنا بعد المناولة الإلهية يجب ان تصير مسيحية النوع، أي على شكل المسيح. «وأما أنتم فجسد المسيح وأعضاؤه أفراداً» (١ كور١٢: ٢٧). إن كلمات الرسول تنطبق بالأكثر على أرواحنا وتنطبق على جسدنا، ويشير الرسول بولس عندما يقول: «وأما مَن يلتصق بالرب فهو روح واحد» (١ كور ١٦: ١٧) إلى الرباط الذي يربط نفسنا بالمسيح. ويشدّد كثيراً على هذا الرباط. لذلك لم يأخذ المسيح جسداً فحسب بل روحاً وعقلاً وإرادة وكل ما هو بشري ما عدا الخطيئة حتى يتحد كلياً مع وجودنا ويربط كل ما لنا بما له. مع الخطأة فقط لا يتحد المسيح لأنه خلو من كل خطيئة ولا علاقة له بها لأنه بريء من الخطأ. لقد قبل السيد كإله رحيم كل عناصر حياتنا ما عدا الخطيئة وتنازل ليتحد بنا بتنازله الذي لا يحد. فالمسيح الإله الحقيقي نزل إلى الأرض ليرفعنا إلى السماء. صار إنساناً ليرفع الإنسان إلى الله وبقي كإنسان خلواً من كل خطيئة وصار الغالب الأزلي، وأعتق الطبيعة البشرية من الخطيئة والعار، وكمخلص أعتق الإنسان من جريرة الخطايا وصالحه مع الله. لم يكن بإمكاننا أن نصعد إلى السماء وأن ننال هذه المواهب الكبرى ولذلك نزل المخلص إلى الأرض فأخذ ما لنا وأعطانا ما لا ثمن له من خاصته. أعطانا جسده ودمه. وبهذه الطريقة نستقبل الله ونقبله في نفوسنا.

من الواضح ان المسيح يُدخل ذاته إلى داخلنا بالمناولة المقدسة ويتحد معنا ويحوّل وجودنا وفقاً لحياته الخاصة. إذا سقطت قطرة من الماء في محيط من العبير فالقطرة تندمج في المحيط وتتحد به وتأخذ كل خواصه وتتحول إلى عبير كالمحيط الذي سقطت فيه. فالمسيح هو الأريج الروحي وله كل القوة ليحوّل المؤمنين الذين يدخلهم بواسطة المناولة المقدسة إلى أناس ليست حياتهم معطرة فحسب بل إلى أناس يحملون كل عطر المسيح، «لأننا رائحة المسيح الذكيّة لله في الذين يخلصون وفي الذين يهلكون. لهؤلاء رائحة موتٍ ولأولئك رائحة حياة لحياة» (٢ كور ٢: ١٥-١٦).